

من بلاغة النظم العالي في أدعية الخليل عليه السلام، دراسة بلاغية تحليلية
Qur'anic Eloquence in Supplications of 'Abrahām (upon Him be peace):

Analytical and Rhetorical Study

د/حبيب الله خان(محاضر في كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد، باكستان)

سيد عبد السلام باچا(باحث بمرحلة الدكتوراه في كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد)

Abstract

The study focuses on the prayers of prophet Ibrahim (PBUH) with emphasis on the verses, rhetorically. The study derives some rhetoric mysteries and points out the aesthetic features of Quranic Text. The paper further sheds light on the coherence of sacred verses and provides a comparative description. The study also elaborates how these verses are symbols of eloquence and how these rationally reflect the miracles of Holy Quran. The study specifically discusses the various metaphorical issues of the Arabic language and comparatively concentrates on the phenomenon of definite and indefinite nouns, specifying the exact linguistic and rhetoric circumstances. The paper explains the Arabic word (رب) and rationalized it from different rhetorical angles.

Keywords: Rhetoric, Aesthetic, Comparative Description, Definite, Indefinite

حمدأً لله، وصلاةً وسلاماً على سيدنا رسول الله، وعلى آلـه وصحبه..... وبعد:
فقد وردت في الكتاب الكريم أدعية كثيرة لأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -. وهذه الأدعية تحتوي على محاسن لطيفة، ونكت عجيبة، لأن الأنبياء هم صفوـة البشر وخير الخلق، وفي قصصهم عبر وعظات في مقام التوحيد، والعبودية، وفي مقام الدعوة إلى الله، كما أن الله علـمهم كيف يلتـجئون إليه، ويستعينون به في السراء والضـراء.

ومنها أدعية الخليل عليه السلام التي ناجـي بها ربه: "رب اجعلني مـقيـمـ الصـلاـةـ وـمـنـ ذـرـيـيـ رـبـنـاـ وـتـقـبـلـ دـعـاءـ¹ رـبـنـاـ إـنـكـ تـعـلـمـ مـاـ نـخـفـيـ وـمـاـ نـعـلـنـ وـمـاـ يـخـفـيـ عـلـىـ اللـهـ مـنـ سـيـءـ فـيـ الـأـرـضـ وـلـاـ فـيـ السـمـاءـ² رـبـنـاـ اغـفـرـيـ وـلـوـالـدـيـ وـلـلـمـؤـمـنـيـنـ يـوـمـ يـقـوـمـ الـجـسـابـ³" رب هب لي حـكـماـ وـالـحـقـقـيـ بـالـصـالـحـيـنـ⁴" رب هب لي من الصـالـحـيـنـ⁵" ربـنـاـ لـاـ تـجـعـلـنـاـ فـتـنـةـ لـلـذـينـ كـفـرـوـاـ وـأـغـفـرـ لـنـاـ رـبـنـاـ إـنـكـ أـنـتـ الـعـزـيـزـ الـحـكـيمـ⁶" ربـنـاـ عـلـيـكـ تـوـكـلـنـاـ وـإـلـيـكـ أـنـبـنـاـ وـإـلـيـكـ الـمـصـيرـ⁷"

ونظـراـ لأـهمـيـةـ هـذـهـ أـدـعـيـةـ فـيـ الـكـتـابـ العـزـيـزـ رـأـيـنـاـ أـنـ نـدـرـسـهـاـ درـاسـةـ بلـاغـيـةـ تـحـلـيـلـيـةـ،ـ وـلـكـنـ قدـ يـكـونـ منـ الصـعـبـ الإـحـاطـةـ بـكـلـ أـدـعـيـةـ الـخـلـيلـ،ـ وـالـكـشـفـ عـمـاـ فـهـاـ مـنـ الـأـسـالـيـبـ الـبـلـيـغـةـ فـيـ بـحـثـ كـهـذاـ،ـ وـلـذـاـ فـسـنـكـتـفـيـ بـالـحـدـيـثـ عـنـ دـعـيـيـنـ مـنـ تـلـكـ الـأـدـعـيـةـ وـتـحـلـيـلـهـمـاـ تـحـلـيـلـاـ بلـاغـيـاـ:

قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي اجْعُلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَأَزْقُ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَأَلْيَومَ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَّمَعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَصْطُرْهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمُصِيرُ"⁸ وقال تعالى: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي اجْعُلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْتَبِنِي أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ - رَبِّ إِمَّهُنَّ أَصْلَنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبَعَنِي فَإِنَّهُ مِنِي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" -⁹

الدعوة الأولى لسيدنا إبراهيم عليه السلام في كل من السورتين يبدو أنها دعوة واحدة، ويقوى من ذلك أن بناء كل من الدعوتين كان من كلمات واحدة، ولا اختلاف بين النظم في كل منها إلا في مجيء "بلدا" متكررا في (آية البقرة)، ومعرفا (البلد) في (آية إبراهيم)، فيكون ما ورد بالأية الثانية من قبيل التكرار لما ورد بالأولى .

لكننا إذا أمعنا النظر وجدنا اختلافا بين الدعوتين، فالدعوة الأولى كانت من سيدنا إبراهيم عليه السلام قبل بناء الكعبة المشرفة، وأما الدعوة الثانية الواردة في (آية إبراهيم) فكانت بعد بنائها. فالدعوة الثانية إذن مؤسسة لمعنى جديد وليس مؤكدة للدعوة الأولى. والذى يرجح ما ذهبنا إليه ما يأتي:

1 اختلاف الدعوتين في تعريف لفظ (البلد) وتنكيره:

أمر الله عزوجل إبراهيم عليه السلام بأن يستجيب لرغبة زوجه سارة بإبعاد هاجر وإسماعيل عنها، فاصطحب الغلام وأمه، وسار بهما ترشده إرادة الله حتى أوقفته عند مكان البيت الحرام ، وفي تلك البقعة الجرداء التي لا زرع بها ولاماء، ترك زوجه هاجر، وفلذة كبده إسماعيل، واستودعهما عنابة السماء، ثم تولى وعيشهما تفيضان بالدموع وهو يقول: "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ..."¹⁰

ورأى خليل الرحمن ما عليه هذا الوادي من الخوف والوحشة فدعا ربها أن يصيير هذا الوادي المقفر المجدب بلدا آمنا وأن يرزق أهله من فضله فقال ما حكاه المولى عزوجل بقول: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي اجْعُلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا...."

فهذه الدعوة من سيدنا إبراهيم عليه السلام وقعت، ولم يكن هذا الوادي قد جعل بلدا، فطلب إبراهيم من ربها أن يجعل هذا الوادي، الذي نزلت به هاجر مع طفلها إسماعيل بلدا يقيم فيه الناس فلا يشعر أهل بيته بوحشة الغربة، ولا بألم الوحدة.

يقول أبو سعود: "المُسْؤُلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ "الْبَلْدَيْةُ" وَمُجْرِدُ الْأَمْنِ الْمُصْحَّحُ لِلسُّكُنِي كَمَا فِي سَائِرِ الْبَلَادِ، وَقَدْ أَجَبَ إِلَى ذَلِكَ"¹¹.

وهذا ما أشار إليه ابن عاشور كذلك: "والظاهر أن دعوة إبراهيم المحكية في هذه الآية كانت قبل أن تتقرى مكة حيث لم يكن بها إلا بيت أو بيتان آخران؛ لأن إبراهيم ابتدأ عماراته ببناء البيت من حجر ولأن إلهام الله إياه لذلك لإرادته، تعالى، مصيرها مهيع الحضارة لتلك الجهة إرهاصا لنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم".¹²

من بـلـاغـة النـظـم العـالـى فـى أـدـعـة الـخـلـيل عـلـى السـلـام درـاسـة بلـاغـيـة تـحـلـيلـيـة

والـذـى يـتـنـاسـب مـع هـذـا المـقـام المـجـئ بـ"بـلـد" مـنـكـرا؛ لأنـه وـقـت هـذـا الدـعـوـة لـم يـكـن لـه وجود، وـمـقـصـود إـبـرـاهـيم عـلـى السـلـام الـأـوـل هو تـحـقـق الـبـلـدـيـة، وـأـمـا صـفـة الـأـمـن فـتـابـعـة لـمـطـلـوب الـأـسـاسـي، ولـذـلـك يـكـون إـعـرـاجـها عـلـى الـوـجـه التـالـي:

"هـذـا" مـفـعـول أـوـل لـلـفـعـل "أـجـعـل" وـ"بـلـدـا" هـو مـفـعـول الـثـانـي، وـمـفـعـول الـثـانـي هـو الـخـبـر فـى الـأـصـل، فـهـو مـقـصـود مـن الـكـلـام، وـأـمـا "آـمـنـا" فـنـعـت لـمـفـعـول الـثـانـي.

أـمـا فـى آـيـة (إـبـرـاهـيم) فـقـد جـاءـت "بـلـدـا" مـعـرـفـة، لأنـه هـذـا الدـعـوـة قد كـانـت وـقـد جـعـل الـوـادـي بـلـدـا، فـأـقـامـ فـيـه إـلـى جـوـارـهـاـجـرـ وـوـلـدـهـاـ إـسـمـاعـيلـ عـشـائـرـ منـ جـرـهمـ وـقـطـورـاءـ وـالـعـمـالـقـةـ وـالـكـرـكـرـ. وـحـيـثـ يـكـثـرـ النـاسـ وـيـوـجـدـ الزـحـامـ، يـكـونـ الجـوـ مـهـيـئـاـ لـوـقـعـ الـجـرـيـمـةـ فـطـلـبـ إـبـرـاهـيمـ عـلـىـ السـلـامـ، مـنـ رـبـهـ أـنـ يـجـعـلـ هـذـا الـبـلـدـ مـحـلـ لـلـأـمـنـ، وـيـطـمـعـ فـىـ تـحـقـيقـ هـذـا الـمـطـلـبـ بـعـدـ ماـ حـقـقـ اللـهـ، فـيـمـا سـبـقـ، فـىـ أـنـ يـكـونـ "الـوـادـيـ" بـلـدـاـ.

يـقـولـ بـدـرـ الـدـيـنـ بـنـ جـمـاـعـةـ: "أـنـ آـيـةـ الـبـقـرـةـ دـعـاـ بـهـاـ عـنـدـ تـرـكـ إـسـمـاعـيلـ فـىـ الـوـادـيـ قـبـلـ بـنـاءـ مـكـةـ، وـسـكـنـيـ جـرـهـمـ فـهـاـ، وـآـيـةـ إـبـرـاهـيمـ بـعـدـ عـودـهـ إـلـهـاـ وـبـنـائـهـاـ".¹³

وـعـنـ دـلـالـةـ التـنـكـيرـ فـيـ "بـلـدـاـ" وـالـتـعـرـيفـ فـيـ "بـلـدـاـ" يـقـولـ صـاحـبـ درـةـ التـنـزـيلـ: "...الـدـعـوـةـ الـأـوـلـ وـقـعـتـ وـلـمـ يـكـنـ الـمـكـانـ قـدـ جـعـلـ بـلـدـاـ، فـكـأنـهـ قـالـ: أـجـعـلـ هـذـاـ الـوـادـيـ بـلـدـاـ آـمـنـاـ... وـوـجـهـ الـكـلـامـ فـيـهـ تـنـكـيرـ "بـلـدـاـ" الـذـيـ هـوـ مـفـعـولـ ثـانـ، وـ "هـذـاـ" مـفـعـولـ أـوـلـ. وـالـدـعـوـةـ الثـانـيـةـ وـقـعـتـ وـقـدـ جـعـلـ بـلـدـاـ، فـكـأنـهـ قـالـ: أـجـعـلـ هـذـاـ الـمـكـانـ الـذـيـ صـيـرـتـهـ كـمـاـ أـرـدـتـ، وـمـصـرـتـهـ كـمـاـ سـأـلـتـ ذـاـ أـمـنـ عـلـىـ مـنـ أـوـىـ إـلـيـهـ، فـيـكـونـ "بـلـدـاـ" عـلـىـ هـذـاـ عـطـفـ بـيـانـ عـلـىـ مـذـهـبـ سـيـبـيـوـهـ، وـصـفـةـ عـلـىـ مـذـهـبـ أـبـيـ الـعـبـاسـ الـمـبـرـدـ، وـ "آـمـنـاـ" مـفـعـولاـًـ ثـانـيـاـ، فـعـرـفـ حـيـنـ عـرـفـ بـالـبـلـدـيـةـ، وـنـكـرـ حـيـثـ كـانـ مـكـانـاـ مـنـ الـأـمـكـنـةـ غـيـرـ مـشـهـورـ بـالـتـمـيـيزـ عـنـهـاـ بـخـصـوصـيـةـ مـنـ عـمـارـةـ وـسـكـنـيـ النـاسـ".¹⁴

2 اختلاف المشار إليه:

اسم الإـشـارـةـ كـمـاـ يـقـولـ النـحـاةـ: اـسـمـ يـعـينـ مـدـلـولـهـ تعـيـيـنـاـ مـقـرـونـاـ بـإـشـارـةـ حـسـيـةـ إـلـيـهـ"¹⁵ـ وـقـدـ يـزـيدـونـ الإـشـارـةـ بـيـاناـ فـيـذـكـرـونـ بـعـدـ اـسـمـ الإـشـارـةـ اـسـمـ يـعـربـ عـطـفـ بـيـانـ أوـ بـدـلاـ مـنـ اـسـمـ

الـإـشـارـةـ لـلـدـلـالـةـ عـلـىـ أـنـ المـشـارـ إـلـيـهـ قـصـدـ اـسـتـحـضـارـهـ مـنـ بـعـضـ أـوـصـافـهـ".¹⁶

ولـذـلـكـ جـئـ بـلـفـظـ "بـلـدـاـ" فـيـ آـيـةـ إـبـرـاهـيمـ لـبـيـانـ الـمـرـادـ مـنـ "هـذـاـ"ـ فـالـبـلـدـيـةـ قـدـ تـحـقـقـتـ لـهـذـاـ الـوـادـيـ بـدـلـالـةـ الـإـشـارـةـ إـلـىـ ذـلـكـ.

أـمـاـ فـىـ آـيـةـ الـبـقـرـةـ فـالـمـشـارـ إـلـيـهـ مـحـدـدـ بـدـلـالـةـ الـحـالـ وـالـوـاقـعـ، فـالـمـرـادـ بـهـ الـوـادـيـ الـذـيـ حلـتـ بـهـ أـسـرـةـ الـخـلـيلـ، وـالـذـىـ يـعـزـمـ عـلـىـ بـنـاءـ الـكـعـبـةـ فـيـهـ، وـهـوـ الـمـكـانـ الـذـيـ دـعـاـ فـيـهـ بـهـذـهـ الـدـعـوـةـ، فـكـلـ ماـ تـقـدـمـ كـافـ فـىـ تـحـدـيدـ الـمـشـارـ إـلـيـهـ وـبـيـانـهـ، فـلـيـسـ الـأـمـرـ بـحـاجـةـ إـلـىـ بـيـانـ فـىـ الـلـفـظـ، لـذـلـكـ كـانـ قـوـلـهـ: "رـبـ أـجـعـلـ هـذـاـ بـلـدـاـ آـمـنـاـ". وـأـفـيـاـ بـالـغـرـضـ.

ويقول صاحب التحرير والتنوير:¹⁷.. وقد عدل هنائي في آية البقرة، عن بيان المشار إليه اكتفاء عنه بما هو الواقع عند الدعاء، فإن إبراهيم دعا دعوته وهو في الموضع الذي بني فيه الكعبة، لأن الغرض ليس تفصيل حالة الدعاء وإنما هو بيان استجابة دعائه، وفضيلة محل الدعوة¹⁸ وتحقيق الكلام: كما يقول صاحب الكشف: أنت إذا قلت: (اجعل هذا خاتماً حسناً) فقد أشرت إلى المادة¹⁹ وسألت أن يسبك منها خاتماً حسناً.

إذا قلت: (اجعل هذا الخاتم حسناً) فقد عمدت إلى نحو (الحسن) دون (الخاتمية) وذلك لأن محط الفائدة هو (المفعول الثاني) الكائن بمنزلة (الخبر)²⁰

وهذا التحقيق من صاحب الكشف، فيما أرى، قد قطع قول كل قائل، فالمثال المضروب أولاً يتتطابق مع ما ورد في آية (البقرة) أما المثال الثاني فيتطابق مع ما ورد في آية (إبراهيم)

3 (الأمن) هنا غير (الأمن) هناك:

الأمن المطلوب في آية (البقرة) هو الأمن الذي لا بد منه للإقامة بمكان ما، ولا شك أن وجود الزلزال والبراكين في بقعة ما يحول دون الإقامة فيها، وأيضاً لن يقيم الناس في مكان إلا إذا اطمأنوا إلى حصولهم على القوت الضروري، ولذلك عمرت شواطئ الأنهر، والسهول والبقاء.. فالإقامة بالمكان واستيطان الناس فيه مشروط بشرطين: تأمين أرضه من الزلزال والبراكين.

تأمين قوت الناس الضروري الذي لا حياة لهم بدونه.

فالآمن المطلوب في آية (البقرة) الآمن الذي يحقق للوادي الذي نزلت به (هاجر). الذي نزلت به هاجر، مقومات "البلدية" من تأمين الأرض من الكسر والخسف، وتأمين الناس من القحط والجدب.

وطلب إبراهيم، عليه السلام، الثاني وهو: "وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ" في آية البقرة هذه لا يعتبر أيضاً من قبيل التكرار لهذه الدعوة الأولى لأن الدعوة الأولى في "رَبِّ اجْعُلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا" تشتمل على طلب الرزق لساكنيه، وزيادة تمثل في الآمن من الخسف والزلزال.

وعلى فرض أن المراد من قوله تعالى: "آمنا" هو الآمن الغذائي فقط لإبعاد شبح الجدب والقحط²¹ فإن الطلب الثاني يعني الزيادة في الرزق والتوسعة فيه بأن يفرد إليه ثمار الأشجار من كل مكان، ويصدق ذلك قوله تعالى: "...أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"²²

يقول الشيخ زادة: ..فإن قيل²³: فيكون سؤال الرزق بعده تكراراً؟

قلنا: لا نسلم، لأن الآمن من القحط يحصل بحصول ما يحتاج إليه من الأغذية من غير كد بليغ، وهو لا يستلزم التوسعة بحصول الفواكه والثمرات، فهو عليه السلام بالسؤال الأول، طلب إزالة القحط، وبالسؤال الثاني: التوسعة العظيمة²⁴

من بلاغة النظم العالى فى أدعية الخليل عليه السلام، دراسة بلاغية تحليلية

أما الأمان المطلوب في آية إبراهيم فهو الأمان العام الذي يحتاج إليه البلد الذي ازدحم بالناس، من تأمين للناس على أنفسهم، وعلى أموالهم، وعلى ديارهم.

أما تأمين الناس على أرواحهم ففي داخل هذا "البلد الحرام" وفي خارجه، فسكانه لا يغزون، فمن أراده من الجبابرة قصمه الله كما في حادث الفيل، فالبلد الحرام آمن من غارات القبائل الهمجية التي كانت تهلك الحرف والنسل لأتفه الأسباب.

بل من فضائل الحرم كما يقول ياقوت: "من دخله كان آمناً ومن أحدث في غيره من البلدان حدثاً ثم لجأ إليه فهو آمن إذا دخله، فإذا خرج منه أقيمت عليه الحدود.. وكان أهلة آمنين يغزون الناس ولا يغزون".²⁵ قبيت الله الحرام آمن، والمخافة حوله في كل مكان من جزيرة العرب وقد اكتسب سكانه من هذا البلد الحرم فعظمتهم الناس وهابوهم في خارج حدوده.

وأما تأمين سكانه على أموالهم فيظهر جلياً في رحاب الشتاء والصيف، يقول الزمخشري في تفسير سورة قريش: ..والمعنى أنه أهلك الحبشة الذين قد صدومهم ليتسامع الناس بذلك فيتهبواهم زيادة تهيب، ويحترمواهم فضل احترام حتى ينتظم لهم الأمان في رحلتهم، فلا يجرئ أحد عليهم، وكانت لقريش رحلتان، يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام فيمتدرون ويتجرون وكانوا في رحلتهم آمنين: لأنهم أهل حرم الله، وولادة بيته، فلا يتعرض لهم، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم²⁶

وأما تأمين ديار "بيت الله الحرام" فواضح مما تقدم، بل إن الأمان قد شمل أرض الحرم بما عليها من شجر وطير... الخ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عام الفتح قد وقف على جمرة العقبة وقال: إنها²⁷ لم تحل لأحد كان قبلها ولا تحل لأحد كان بعده، وما أحلت لي إلا ساعة من نهار، ثم هي حرام لا يعصب شجرها، ولا يحتش خلاها، ولا تلتقط ضالتها إلا المنشد ... وكذلك لا ينفر صيدها.²⁸

وهذا الأمان كان لا بد منه لهذا "البلد الحرام" الذي يفد إليه الحجاج والعمار من كل فج عميق "لِيَشْهُدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ..."²⁹

ويشهد ذلك "البلد الحرام" أكبر تجمع عرفته البشرية في تاريخها في موسم الحج، ولنا أن نتصور كيف يكون لو لم ينظم هذا التنظيم الإلهي ببركة دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام؟!

ولذلك امتن الله، عزوجل، على أهل مكة بنعمة الأمان هذه فقال سبحانه وتعالى: "أَوَلَمْ يَرُوا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَإِلْيَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَيُنْعَمُهُ اللَّهُ يَكْفُرُونَ"؟³⁰

ولقد حق ذلك النظام الإلهي لهذا البلد الحرام من الطمأنينة والأمن ما لا تستطيع قوة من قوى الأرض أن تتحققه، من هنا استحق هذا البلد لقب: "البلد الأمين".

يقول الإمام فخر الدين الرازي: "نقل أنه عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة ذكر هذا الدعاء³¹، والمراد منه جعل تلك البلدة آمنة من الخراب".

ثم يذكر الإمام فخر الدين الرازي ما امتازت به مكة من مظاهر الأمان فيقول: إن الخائف إذا التجأ إلى مكة آمن، وكان الناس مع شدة العداوة بينهم يتلاقون بمكة فلا يخاف بعضهم بعضاً. ومن ذلك أمن الوحش، فإنهم يقربون من الناس إذا كانوا بمكة، ويكونون مستوحشين عن الناس خارج مكة، فهذا النوع من الأمان حاصل في مكة³² فوجب حمل الدعاء على وقد اتضح فيما قدمناه، اختلاف الآيتين في مفهوم الأمان مما يرجح استقلال الدعوة في آية إبراهيم عن الدعوة في آية البقرة.

4. السياق في كل من الآيتين:

بعد دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام "رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا" في آية البقرة، جاء في قوله تعالى: "وَإِذْ يَرْفَعُ إِنْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلَ مِنَا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"³⁴ فلو أخذنا بترتيب الآيات في هذا المقطع القرآني من سورة البقرة لأفادتنا أن دعوة إبراهيم عليه السلام ببلدية الوادي وأمنه كانت قبل رفع قواعد البيت، أي كانت قبل بناء الكعبة.

ولعل في التعبير بالمضارع: "يرفع" ما يقوى هذا الاتجاه، وخاصة بعد التعبير بالماضي في دعوة إبراهيم عليه السلام: "إذ قال" وزمن الماضي قبل زمن المضارع، إذن الدعوة قد وقعت قبل البناء ورفع الأساس.

فإذا ما أضفنا إلى هذا أن الأحداث في المقطع القرآني من سورة البقرة لا يظهر فيها من ولد إبراهيم إلا إسماعيل، دل ذلك على أنها كانت قبل بناء الكعبة وفي أثناء البناء، أما فترة ما بعد بناء الكعبة فقد ولد فيها إسحاق، وكان يكبره أخوه إسماعيل بأربعة عشر عاماً وهي فترة من العمر كافية في تأهيله لمساعدة أبيه في بناء الكعبة.

يقول محمد الفقي: "وكانت ولادة إسحاق بعد أخيه إسماعيل، ولأبيه مائة سنة، ولأخيه إسماعيل أربع عشرة سنة، وعمر أمه سارة تسعون سنة"³⁵

أما في آية إبراهيم فإنها في مقطع قرآن جاء في ختامه: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ"³⁶ وبروز إسحاق على مسرح الأحداث كان بعد بناء الكعبة.

على أن المقطع القرآني في سورة البقرة كان يدور حول الدعوة بأن يصير ذلك الوادي بلداً، ومقومات صিروته بلداً آمناً، ورفع قواعد البيت.

أما مقطع سورة إبراهيم فيدور حول العبادة والإخلاص فيها، وعلم الله تعالى بالسر والعلانية، وضرورة أداء فريضة الحج، وكذلك فريضة الصلاة، وكل منها له ارتباط واضح ببناء البيت الحرام (الкуبة) التي ينبغي أن تتپهر من الأصنام للطائفين والعاكفين والركع السجود.

مواضع الاتفاق

هذا وقد اتفق الموضعان من السورتين في أشياء واجتازا في أشياء، فقد اتفقا في **اللفاظ الدعوة الأولى إلا في تعريف "البلد"** وتنكيره، على ما بيناه فيما سبق مما ترتب عليه القول بالاختلاف في المعنى. فقد أسندا القول في كل من الدعوتين لسيدنا إبراهيم عليه السلام للدلالة على أن كلا من الدعوتين صادرة عن نبي معصوم، مما يؤهلها للاستجابة والقبول، وقد استجاب الله عزوجل لطالب إبراهيم في دعائه.

واختيار لفظ "رب" دون ما سواه، لما يحمل في طياته من معنى التربية التي تنتقل بالمربي³⁷ من حال إلى حال حتى تصل به إلى مرحلة النضج والكمال، ولهذا كان هذا الاسم أحق الأسماء بالنداء عليه للاستعانة به على الضعف البشري، ولذا يقال في عبارات التضرع والسؤال: "رب اجعل هذا البلد آمناً... رب إلهنَّ أضلُّنَّ كثِيرًا مِنَ النَّاسِ... ربَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرَيْتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي رَزْعٍ... ربَّنَا إِنِّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ... ربَّ اجْعُلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرَيْتِي رَبَّنَا وَتَقْبَلْ دُعَاءَ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ"³⁸

والملحوظ على هذه الدعوات المبدوعات بالنداء أنها مدة يؤتي فيها بلفظ "رب" مضافا إلى ضمير المتكلم المفرد كما في: "رب اجعل هذا البلد آمناً..."

ومرة أخرى يؤتي به مضافا إلى ضمير الجمع، كما في: "ربَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرَيْتِي..." والملحوظ أيضاً أن ما يأتي منها مضافا لضمير المفرد يكون له مزيد تعلق بالنبوة والرسالة من مثل: توفير الأمن للبلد الحرام ليقبل الناس على أداء الحج وزيارة البيت، وإقامة الصلاة، والنعي على عابدي الأصنام.

وأما ما ورد من الدعاء بلفظ "رب" مضافا لضمير الجمع فلم يذكر إبراهيم عليه السلام حظ في الدعاء به كما في: "ربَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرَيْتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي رَزْعٍ..." ولا ريب في أن زوجه هاجر تشرك معه في الدعاء بهذه الدعوة، بلسان الحال أو بلسان المقال، وكذلك الإقرار بأن الله يعلم السر والعلن يشترك مع إبراهيم عليه السلام، زوجه وولده، وقل مثل ذلك في الدعاء بالمغفرة للوالدين وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

يقول صاحب التحرير والتنوير³⁹: "... وافتتحت بالنداء لزيادة التضرع... وأضيف الرب هنا إلى ضمير الجمع خلافاً لسابقيه⁴⁰ لأن الدعاء الذي افتتح به فيه حظ للداعي ولأبنائه، ولعل إسماعيل عليه السلام حاضر معه حين الدعاء"⁴¹،
المجاز العقلي في: "بلداً آمناً":

الذي يتأنى منه الأمان هم سكان البلد، فإذا ناد الأمان إلى "البلد" معرفاً أو منكراً، إن ناد لغيرها ما هو له، فهو من قبيل (المجاز العقلي) وهذا ما أشار إليه العلامة الزمخشري بأسلوب رائع وجيز: "ذا آمن، كقوله: "عيشة راضية" أو "آمناً" من فيه، كقولك: ليلٌ نائمٌ"⁴² ولعل في إسناد الأمان إلى المكان إشارة إلى ما ينبغي أن تكون عليه تلك البقعة المباركة من المهدوء والأمان والسلام، مما يسمح للحجاج

وللعمار بأداء مشاعرهم المقدسة دون أدنى تروع أو تخويف بصرف النظر عن كثرة رجال الأمن أو قلتهم، لأن الله عزوجل، هو الذي جعلها حراماً.

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيمة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيمة"⁴³

وال TOKIJD على معنى "الحرمة" في قوله صلى الله عليه وسلم: "هذا بلد حرمه الله" وفي قوله: "وهو حرام بحرمة الله" وفي قوله: "ولم يحل لي إلا ساعة من نهار" وفي قوله أخيراً: "فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيمة".

كل هذه التوكيدات للدلالة على أهمية حرمة هذه البقعة المباركة، وللإيماء إلى عظم نعمة الأمان من الخوف، والأمن في بلد الله الحرام أمن عام يشمل الإنسان والحيوان والنبات، وأي أمن يمكن أن يكون أعظم من ذلك الأمان؟!

ولذلك امتن الله عزوجل على قريش بهذه النعمة العظيمة في قوله: "فَلَيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمُهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْمَهُمْ مِنْ خَوْفٍ"⁴⁴ بين حديثين شريفين:

إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسنـد تحريم مكة إلى الله عزوجل في الحديث المتقدم، فقد أسنـده إلى "إبراهيم" في قوله: "إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وإنى حرمـت المدينة كما حرم إبراهيم مكة وإنـي دعـوت في صاعـها ومـدـها كما دـعا إبراهـيم لأـهل مـكـة"

ولا تعارض بين الحديثين، فلـلـلـمـراد منـالـحـديـثـالأـلـأـوـلـ الإـخـبـارـبـأـنـمـكـةـكـانـتـحـرـاماـفـسـابـقـعـلـمـالـلـهـوـقـضـائـهـ،ـإـلـيـأـنـتـعـالـلـمـيـتـعـبـدـالـخـلـقـبـذـلـكـحـتـقـسـأـلـهـإـبـرـاهـيمـعـلـيـهـالـسـلـامـفـحـرـمـهـاـ،ـفـخـطـابـالـلـهـتـعـالـيـبـتـحـرـيمـهـأـلـيـ،ـوـتـعـلـقـهـبـالـحـرـمـحـادـثـبـعـدـالـسـؤـالـ،ـفـتـحـرـيمـهـاـمـسـنـدـإـلـيـهـتـعـالـيـحـقـيقـةـ،ـوـإـلـيـإـبـرـاهـيمـمـجـازـاـمـنـحـيـثـإـنـعـلـيـهـالـسـلـامـمـظـهـرـلـحـرـمـهـاـ"⁴⁵

من أجل ما تقدم استحققت "مكة" أن تسمى بـ"البلد الأمين" قال تعالى: "وَالَّتِينَ وَالرَّبِيعُونَ، وَطُورُ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدُ الْأَمِينُ"⁴⁶

والدعوة بالأمن من جوامـعـكـلـمـالـنـبـوـةـلـمـيـقـتـضـيـهـأـمـنـالـبـلـدـمـنـكـلـأـسـبـابـالـسـعـادـةـالـعـدـلـ،ـوـالـغـنـىـوـالـعـزـةـ،ـوـالـرـخـاءـ،ـوـالـعـمـارـةـ،ـوـالـحـضـارـةـ.

وهـذاـ ماـ عـالـجـ ابنـ عـاشـورـ فـيـ تـفـسـيرـ الـبـارـعـ بـأـسـلـوبـ جـزـلـ مـفـصـلـ:ـ"ـوـلـقـدـ كـانـتـ دـعـوـةـ إـبـرـاهـيمـ هـذـهـ مـنـ جـوـامـعـ كـلـ الـنـبـوـةـ فـإـنـ أـمـنـ الـبـلـادـ وـالـسـبـيلـ يـسـتـبـعـ جـمـيـعـ خـصـالـ سـعـادـ الـحـيـاةـ وـيـقـتضـيـ الـعـدـلـ،ـوـالـعـزـةـ،ـوـالـرـخـاءـ،ـإـذـ لـأـمـنـ بـدـونـهـاـ،ـوـهـوـ يـسـتـبـعـ التـعـمـيرـ،ـوـإـقـبـالـ عـلـىـ مـاـ يـنـفـعـ،ـوـالـثـرـوـةـ فـلـاـ يـخـتـلـ الـأـمـنـ إـلـاـ إـذـاـ اـخـتـلـتـ الـثـلـاثـةـ الـأـوـلـ إـذـاـ اـخـتـلـتـ الـثـلـاثـةـ الـأـخـيـرـةـ،ـوـإـنـمـاـ أـرـادـ بـذـلـكـ تـيسـيرـ الـإـقـامـةـ فـيـهـ عـلـىـ سـكـانـهـ لـتـوـطـيـدـ وـسـائـلـ مـاـ أـرـادـهـ لـذـلـكـ الـبـلـادـ مـنـ كـوـنـهـ مـنـبـعـ الـإـسـلـامـ"⁴⁷

بين (البلد) و(القرية):

مكة المكرمة قد أطلق عليها هنا في دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام اسم "البلد" بينما أطلق علىها لفظ "القرية" في مثل قوله تعالى: "وَكَائِنٌ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتَكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكَنَا هُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ"⁴⁸

وفيما يبدوا لي أن (القرية) حتى تكون قرية لا بد وأن تكون "بلدًا" أولاً، لأن البلد: كل قطعة من الأرض متخيزة عامرة أو غامرة أقام بها بعض الناس⁴⁹

إذا ما كبرت تلك القطعة لتزداد حجم الناس، وكثرة عددهم فيها، حيث قد انضم إلى أهلها آخرون فأصبحت مصرًا جامعاً⁵⁰ فإنها تسمى حينئذ "قرية" يقول الإفصاح في فقه اللغة: القرية: المصر الجامع، وقيل: كل مكان اتصلت به الأبنية، واتخذ قراراً، وتقع على المدن وغيرها..⁵¹

فمقومات الحياة في "القرية" أوفر من مقوماتها في "البلد" ولذلك يستعمل القرآن "القرية" في مواطن القوة والباس، كما في مثل قوله تعالى: "فَكَائِنٌ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكَنَا هُمْ وَهِيَ ظَالِمَةٌ" ..⁵² وكما في قوله تعالى: "إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقُرْيَةِ رِجْرًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ"⁵³

على حين يستعمل "البلد" في مواطن الدعة والضعف، كما في قوله تعالى: "...بَلْدَةٌ طَيْبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ"⁵⁴ وكما في قوله تعالى: "وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدْرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتَانَ كَذَلِكَ تُخْرِجُونَ"⁵⁵

موضع الاختلاف

إذا ما كان هناك اتفاق في الفاظ (الدعوة الأولى) في كل من السورتين⁵⁶ فإن الاختلاف واضح غالباً الموضوع في (الدعوة الثانية) في كل منها، حيث إن الدعوة الثانية في آية البقرة جاءت بلفظ: "وارزق أهله من التمرات ممن آمن منهم بالله واليوم الآخر..." بينما جاءت في آية إبراهيم بلفظ "واجتبني ونبي أن تعبد الأصنام" و من متممات هذه الدعوة قوله: "رَبِّ إِنَّمَنِ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبَعَّنِ فَإِنَّهُ مِنْ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ"⁵⁷

وفي الدعوة الثانية في آية البقرة يبدو (تقرير الربوبية) فالمولى عز وجل رب المؤمن ورب الكافر، وهو سبحانه وتعالى من هذا المنطلق متکفل برزق كل منها، مما طلب إبراهيم عليه السلام الرزق للمؤمن، عطف المولى عز وجل في الجواب عليه (رزق الكافر) فقال: "...وَمَنْ كَفَرَ فَأَمْتَعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرْهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَئِنَّ مُصِيرَهُ بَدِيرٌ" وهذا هو التحليل الذيتناوله القاضي البيضاوي متاثراً بالعلامة الزمخشري حيث قال: "قاد إبراهيم عليه السلام الرزق على الإمامة، فنبه سبحانه على أن الرزق رحمة دينية تعم المؤمن والكافر، بخلاف الإمامة والتقدم في الدين"⁵⁸

أما في الدعوة الثانية في آية إبراهيم فيبدو (تقرير الألوهية) وتحديد العبود الذي يستحق العبادة وأنه رب العالمين، وما عداه من الأصنام فمعبدات باطلة، لذلك طلب إبراهيم عليه السلام من ربيه أن يجنبه وأولاده عبادتها.

نظارات بلاغية في آية البقرة:

"وَأَرْزُقُ أَهْلَهُ مِنَ التَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ" يلاحظ على دعوة سيدنا إبراهيم هذه أنه خصصها بالمؤمنين من دون الكافرين، ولعل السبب كما ذكره بعض المفسرين أنه عليه السلام لما طلب أن تكون الإمامة في ذريته ومنهم البر والفاجرأدبه الله في الجواب فقال: "لَا يَنَالُ عَهْدِي الطَّالِمِينَ" فميزة عز وجل المؤمنين والكافرين، فقام الخليل طلب الرزق على طلب الإمامة فخصصه بالمؤمنين، فأراد الله عز وجل أن يفرق بين الأمرين، إذ لا رزق مقتضى الربوبية التي خلقت كلا من البر والفاجر، والمطيع والعاصي، والصادق والكاذب، والمؤمن والكافر، وتكتفت بالرزق "وَمَا مِنْ دَائِبٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا"⁵⁹

أما الإمامة فبمقتضى (الألوهية)، وهي عقد استخلاف واسترعاء، وإذا كان (الإمام) راع ومسؤل عن رعيته⁶⁰ فالإمامنة تقضي من النبي: قوة العزم والصبر على المحن والشدائد، والنصائح للأمة ليؤدي عن الله عز وجل أمره ونبيه دون أن تأخذه في الدين لومة لائم، فلا يليق بمنصب الإمامة أن يصل إليه ظالم "لَا يَنَالُ عَهْدِي الطَّالِمِينَ"

وهذا ما عالجه العلامة الزمخشري بأسلوب السؤال والجواب: "إِنْ قَلْتَ لِمَ خَصَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى رُدَّ عَلَيْهِ؟ قَلْتَ: قَامَ الرِّزْقُ عَلَى الْإِمَامَةِ فَعُرِفَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّ الْاسْتِخْلَافَ اسْتِرْعَاءٌ يَخْتَصُّ بِمَنْ يَنْصَحُ لِلْمَرْعِيِّ، وَأَبْعَدُ النَّاسَ عَنِ النَّصِيحَةِ الظَّالِمَةِ، بِخَلَافِ الرِّزْقِ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ اسْتِدْرَاجًا لِلْمَرْزُوقِ وَالْزَّاماً لِلْحَجَةِ لَهُ"⁶¹

"مِنَ التَّمَرَاتِ": ثمرة تجمع جمع قلة على (تمرات) وجمع كثرة على (تمر) وقد ورد في القرآن الكريم هذان الجمعان، ورد جمع الكثرة في مثل قوله تعالى: "وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ"⁶² كما ورد جمع القلة: (تمرات) في آية البقرة، ولعل في القلة هنا ما يدل على القناعة والرضا وبخاصة أن الحديث يتعلق بالمؤمنين، وإن المؤمن كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم يأكل في معى واحد"⁶³

يقول الإمام الألوسي: ... وجمع القلة إظهاراً للقناعة⁶⁴

"مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ" أي من آمن منهم بالله ربنا، لأن "الذى كان دائماً موضع جدل هو قضية الربوبية قضية الدينونة في واقع الحياة الأرضية، وهي القضية العملية الواقعية المؤثرة في حياة الإنسان والتي هي مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية، وبين التوحيد والشرك"⁶⁵ والإيمان لا يقتصر على هذين الأمرين: الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، وإنما يخاطبها ليشمل: "الملائكة والكتب، والرسول" فالاقتصار على الأمرين، لأن الإيمان بالله يقتضي الإيمان بكل ذلك.

وقد ذكر معه الإيمان باليوم الآخر لكثرة الجدال في أمره، والشك في وقوعه، وتكون الآية بذلك قد ذكرت الإيمان بالله الذي هو مبدأ الخلق، والإيمان باليوم الآخر وهو المعاد، واكتفت بذلك بهما عن ذكر ما بينهما من الإيمان بالملائكة والكتب والرسول.

يقول صاحب روح المعاني: "واقتصر في متعلق الإيمان بذكر المبدأ والمعاد، لتضمن الإيمان بهما الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به"⁶⁶

"قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمْتَعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرْهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيُئْسِنَ الْمُصِيرَ"

من بـلاغـة النـظم العـالـي فـى أـدـعـة الـخـلـيل عـلـى السـلـام درـاسـة بلـاغـية تـحـلـيلـية

جواب الله عزوجل على دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام، يدل على أن المعطوف عليه محفوظ، وتقديره يكون على نمط المعطوف المذكور، ويصبح المعنى:(من آمن فأمته متعًا دائمًا في الدنيا والآخرة، ثم أدخله جنات النعيم، ونعم المصير)

ومن ذلك يعلم أن الله قد استجاب لدعوه إبراهيم للمؤمنين، حيث قد جعل لهم هذا الخبر في الدنيا، وأعد لهم ما هو أفضل منه في الآخرة وهو إيجاز لم يكن يعهد في غير القرآن، جار على الأصل..

في خطاب القرآن للعرب خاصة، دون ما كان يخاطب به بني إسرائيل⁶⁷

(قليلًا) أي: تمتلك قليلاً لأنك لا تمتلك بالرثى لا يتعدى دنياه، فهو متع زائل مقطوع، لا يغنى عنهم

من الله شيئاً: "أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ"⁶⁸

أما متع المؤمن فهو موصول نعيمه في آخره بنعيمه في دنياه.

"ثُمَّ أَضْطَرْرُهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ": كان العطف هنا بـ(ثم) للدلالة على الإمهال وعدم المعالجة بالعذاب،

وأما العطف في (فأمته) فالباء للدلالة على عدم انقطاع الرثى على الكافر، فرزق الله يأتيه بدون توقف، فالرثى لا يترب على الإيمان، وإنما يترتب على الخلق والإيجاد.

"ثُمَّ أَضْطَرْرُهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ": حينما يخلى بين المرء ونفسه الأمارة بالسوء، فإنه لا يستطيع لها دفعاً، فيقع في الشهوات والخطايا التي تؤدي إلى النار، فيكون مثله مثل المضطر الذي يجبر على فعل لا يريده، وما كان ذلك للكافر إلا لمنع الطاف الله عنه من الهداية والتوفيق.

يقول الألوسي: الأضطرار ضد الاختيار وهو حقيقة في (كون الفعل صادرًا من الشخص من غير تعلق إرادته به)... مجاز في "كون الفعل باختياره ولكن بحيث لا يملك الامتناع عنه، بأن عرض له عارض يكسره على اختياره"⁶⁹

تصريحاً على هذا التحليل نقول: شبه حالة الكافر الذي ذر الله تعالى عليه النعمة التي استدناه قليلاً قليلاً إلى ما يهلكه، بحالة من لا يملك الامتناع مما اضطر إليه، فاستعمل في المشبه ما كان مستعملاً في المشبه به. ومن هنا يتبارد إلى أذهاننا سؤال لا وهو ما سر ختم الآية الكريمة بقوله سبحانه: "ثُمَّ أَضْطَرْرُهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَئِنَّ مَصِيرَهُ؟"

الجواب: للاحتراس، لدفع التوهם أن يفتر الكافر بما قد يرزقه الله تعالى من رزق وفيه، ونعم دنيوية، ويظن ذلك من حب الله تعالى له، ورضاه عنه، ورضوانه عليه، فاحترس عن ذلك بالتنبيه على أن إفاضة الرثى عليه في الدنيا لا يمنع من عقابه وتعذيبه في الآخرة .

نظارات بلاغية في آية إبراهيم:

"وَاجْنُنْيَ وَبَنِيَ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ": أصل التجنب كما يقول الألوسي:- أن يكون الرجل في جانب غير ما عليه غيره، ثم استعمل في البعد⁷⁰

فإبراهيم عليه السلام في دعوته الثانية⁷¹ هذه يطلب من ربِّه عزوجل أن يبعد ما بينه وبين الأصنام كما باعد بين جنبي الرجل مثلاً، وإبراهيم عليه السلام كان فعلاً متبعاً عن الأصنام لأنه

نبي معصوم من الكفر، فالغرض إذن من هذه الدعوة ليس تحقيق الفعل، وإنما الغرض الثبات عليه والدوان.

"ويبدو في دعوة إبراهيم الثانية تسلیم إبراهیم المطلق إلى ربه، والتجاؤه إليه في أخص مشاعر قلبه، فهو... يستعينه بهذا الدعاء، ويستهديه.

ثم ليبرز أن هذه نعمة أخرى من نعم الله، وإنها لنعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهراته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده، فيخرجه من التيه والحيرة والضلال الشرود، إلى المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء"⁷²

وأما متممات هذه الدعوة أقصد قوله: "رَبِّ إِهْنَنَ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبَعَّنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ عَفُوزٌ رَحِيمٌ" فتبعد ملامح سيدنا إبراهيم عليه السلام واضحة للعيان " فهو لا يطلب الهلاك من يعصيه . ولا يستعجل لهم العذاب، بل لا يذكر العذاب، إنما يكلهم إلى غفران الله ورحمته ويلقى على الجو ظلال المغفرة والرحمة"⁷³

فلم يدع على العاصين بالتباب والهلاك كما دعا مثلاً سيدنا نوح عليه السلام: "رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَارًا"⁷⁴

تعقيبات

1 هذا وقد تضمنت الدعوة الثانية في كل من السورتين ذكر المؤمنين، وذكر الكافرين، فمن آمن بالله واليوم الآخر اجتنب عبادة الأصنام، وانتسب إلى إبراهيم عليه السلام واستحق من الله التوفيق والهداية.

وأما من كفر بالله واليوم الآخر فكان من أضل الشيطان، فعبد الأصنام آلة من دون الله، فإن نسبته إلى إبراهيم عليه السلام مبتوطة مقطوعة، واستحق من الله أن يمنع عنه الهدایة إلى طريق النجاة، فهو على أم رأسه في النار وبئس المصير .
وهكذا تتلاقى الآيات مثل هذا التلاقى العجيب

2 يلاحظ أن الدعوة الأولى وهي "طلب الأمان" قد تقدمت في آية البقرة على "طلب الرزق من الثمرات" وتقدمت، أيضًا في آية إبراهيم على "طلب الدوام في البعد عن الأصنام" ، وذلك لما للأمان من أهمية قصوى في حياة الإنسان⁷⁵

ونعمة الأمان تفضل سائر النعم، سئل بعض الحكماء: أن الأمان أفضل أم الصحة؟ فقال: الأمان، دليلاً: إن الشاة لو انكسرت رجلاً، فإنها تصح بعد زمان، ثم إنها تقبل على الرعي والأكل. وإنها لو ربطت في موضع وربط بالقرب منها ذئب، فإنها تمسك على العلف ولا تتناول شيئاً إلى أن تموت، فدل على أن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الألم الحاصل للجسد"⁷⁶
فالأمان نقطة الانطلاق إلى: العمارة، والحضارة، والغنى، والعز، والسيادة، والعدل، والملك.
ومع الأمان يكون الاشتغال بأمور الدين، والقيام بمشاعره، وأداء مناسكه، ومع الخوف بعيد أن يتحقق من ذلك شيء.

يقول النيسابوري: وإنما قدم طلب الأمان على سائر المطالب؛ لأنه لواه لم يفرغ الإنسان لشيء آخر من مهامات الدين والدنيا، ومن هنا جاز التلفظ بكلمة الكفر عند الإكراه⁷⁷

نتائج البحث:

من خلال هذا المقال الموجز المتواضع وصلنا إلى عدة النتائج، أهمها:

- 1 تكبير "بلد" في "إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدآ آمنا" للنوعية، المعنى: بلدآ من نوع البلاد الآمنة .
- 2 في التعبير بجمع الكلمة "الثمرات" إيماء إلى إظهار للقناعة والرضا بالقليل .
- 3 السر في ختم الآية الكريمة بقوله تعالى: "ثم اضطربه إلى عذاب النار وبئس المصير" دفع توهם أن يغتر الكافر لما قد يرزقه الله تعالى من رزق وغيره، ونعم دنيوية، ويظن ذلك من حب الله تعالى له، ورضاه عنه، ورضوانه عليه .
- 4 تكبير كلمة البلد في سورة "البقرة" يدل أن دعاء إبراهيم قد صدر ولم يكن المكان قد جعل بلدآ، وتعريفه في سورة "إبراهيم" يدل أن الدعاء قد صدر وأصبح الوادي بلدآ .
- 5 الأمان المطلوب في سورة البقرة هو الأمان الذي لا بد منه للإقامة بمكان ما، وفي سورة إبراهيم فهو الأمان العام الذي يحتاج إليه البلد الذي ازدهم بالناس، من تأمين الناس على أنفسهم، وعلى أموالهم، وعلى ديارهم .
- 6 المقطع القرآني في سورة البقرة كان يدور حول الدعوة بأن يصيير ذلك الوادي بلدآ، وفي سورة إبراهيم يدور حول العبادة والإخلاص فيها، وعلم الله تعالى بالسر والعalanة، وضرورة أداء فريضة الحج .
- 7 إسناد البلد إلى الأمان معرفاً أو منكراً إسناد لغير ما هو له، فهو من قبيل المجاز العقلي .
- 8 القرية تكون أكبر من البلد وأصغر من مصر الجامع .
- 9 الرزق رحمة دنيوية تعم المؤمن والكافر، بخلاف الإمامة والتقدم في الدين .
- 10 التوكيدات على حرمة بيت الله للدلالة على أهمية حرمة هذه البقعة المباركة، ولإيماء إلى عظم نعمة الأمان من الخوف .
- 11 قدم طلب الأمان على سائر المطالب إيماءً منه عليه السلام أنه لواه لم يفرغ الإنسان لشيء آخر والله أعلم .

الهوامش والمصادر

- ¹ إبراهيم: 40/14.
- ² إبراهيم: 39/14.
- ³ إبراهيم: 41/14.
- ⁴ الشعراء: 89/26.
- ⁵ الصافات: 100/37.
- ⁶ المتنحنة: 5/60.
- ⁷ المتنحنة: 4/60.
- ⁸ البقرة: 126/2.
- ⁹ إبراهيم: 36..35/14.
- ¹⁰ إبراهيم: 37/14.
- ¹¹ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المعروف، تفسير أبو السعود، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى(ت:982هـ)(ب.ت)دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص/1 239
- ¹² التحرير والتنوير المعروف، تفسير ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور(ت: 1339هـ)الطبعة الأولى، عام 1948هـ، الدار التونسية للنشر، تونس، ص/1 695
- ¹³ كشف المعاني في المتشابه من المثاني، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكتاني(ت:733هـ)تحقيق:الدكتور عبد الجواد خلف، الطبعة الأولى، عام 1410هـ/1990م، دار الوفاء، المنصورة، ص 64
- ¹⁴ درة التنزيل وغرة التأويل، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصماني المعروف بالخطيب الإسكافي(ت:420هـ) دراسة وتحقيق:د. محمد مصطفى آيدين، الطبعة الأولى، عام 1422هـ، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، ص 23
- ¹⁵ النحو الوافي، عباس حسن، الطبعة الخامسة عشر(ب.ت)دار المعارف، ص/1 321
- ¹⁶ التحرير والتنوير، ص/1 714
- ¹⁷ أيضاً: ص/1 695
- ¹⁸ الذهب والفضة مثلا
- ¹⁹ أي مخاطبك
- ²⁰ حاشية شيخ زاده على البيضاوي، محيي الدين شيخ زاده(ت:951هـ)الطبعة الأولى، عام 2008م، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص/3 137
- ²¹ كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين
- ²² القصص: 57/28
- ²³ هذا السؤال متفرع على ما ذكره من أن الأمان في آية البقرة قد يراد منه: الأمان من القحط والجدب
- ²⁴ حاشية الشيخ زادة، ص/1 417
- ²⁵ معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي(ت: 626هـ)، الطبعة الثانية، عام 1995م، دار صادر، بيروت، لبنان، ص/5 183(يغزون) الأولى بالبناء للمعلوم، وأما الثانية فمبنية للمجهول
- ²⁶ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري (ت: 538هـ) تحقيق: يوسف الحمامي، (ب.ت.ط)مكتبة مصر، القاهرة مصر، ص/4 801
- ²⁷ أي مكة

من بلاغة النظم العالي في أدعية الخليل عليه السلام دراسة بلاغية تحليلية

- 28 لا يعهد شجرها:لا يقطع،ولا يحتش بمعنى:يحس،وروى: (ولا يختلى خلاها) ولا يختلى بمعنى: لا يحتش أي:لا يقطع،و(الخلا) مقصور: النبت الرقيق كله رطبا،انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري،أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني (ت: 852هـ) تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي،طبعة الأولى،عام 1379هـ،دار المعرفة،بيروت لبنان،ص 4/56،وأيضاً معجم البلدان،ص 5/183
- 29 الحج: 28/22
- 30 العنكبوت: 67/29
- 31 أي: (رب اجعل هذا البلد آمنا...) من سورة إبراهيم
- 32 لعل ذلك كان فيما مضى،أما هذا المظاهر فلا يوجد لأن لازدحامها بالناس وتطورها الحضاري
- 33 التفسير الكبير،أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين،الملقب بفخر الدين الرازي (ت:
- 34 البقرة: 2/127
- 35 قصص الأنبياء،ص 97
- 36 إبراهيم: 14/35
- 37 على صيغة اسم المفعول(أي بتشدد الباء وفتحها)
- 38 إبراهيم: 14/36 إلى 41
- 39 في التعليق على قول الخليل:(ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع...) إبراهيم: 37
- 40 أي خلافاً للفظ(رب) في آيتي 35-36،فقد ورد مضافاً للمفرد،وقد وضحت السرفي مجئه على هذه
- 41 الصورة،والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب
- 42 التحرير والتنوير،ص 13/240،بل ولعل إسحاق أيضاً كان حاضراً
- 43 فتح الباري لابن حجر عسقلاني،ص 4/56
- 44 قريش: 106/4-3
- 45 حاشية الشيخ زاده،ص 1/418
- 46 التين: 95/1-2-3
- 47 التحرير والتنوير،ص 1/696
- 48 محمد: 47/13
- 49 انظر الإفحاح في فقه اللغة،حسين يوسف موسى، و عبد الفتاح الصعيدي، الطبعة الرابعة، 1410هـ.
- 50 مكتب الإعلام الإسلامي،ص 1/553
- 51 المصر الجامع هو:ما أقيمت فيه الحدود ونفذت فيه الأحكام،انظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان،
- 52 نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت: 850هـ) تحقيق:الشيخ زكريا عميرات
- 53 الطبعة الأولى، عام 1416هـ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ج 28، ص 53 .
- 54 الإفحاح في فقه اللغة،ص 1/553
- 55 الحج: 22/45
- 56 العنكبوت: 29/34
- 57 السبأ: 34/15
- 58 الزخرف: 43/11
- 59 فيما عدا تعريف "البلد" وتنكيره مما أدى إلى الاختلاف في المعنى
- 60 إبراهيم: 14/36
- 61 أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف،تفسير البيضاوي،ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن محمد بن
- 62 عمر البيضاوي (ت: 685هـ) تحقيق:محمد عبد الرحمن المرعشلي،طبعة الأولى،عام 1418هـ،دار إحياء

- التراحت العربي، بيروت، لبنان، ص 102⁵⁹
هود: 6/11⁶⁰
- من حديث مشهور لرسول الله صلى الله عليه وسلم، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته وأيامه (صحيح البخاري) محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، تحقيق: محمد ظهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى، عام 1422هـ. دار الطوق النجاة، رقم الحديث 893.⁶¹
- جزء 2، ص 5⁶²
الكشاف، ص 311/1⁶³
- الكافف: 34/18⁶⁴
- (وإن الكافر يأكل في سبعة أمعاء) الحديث في الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله زكي الدين المنذري (ت: 656هـ) الطبعة الثالثة، عام 1388هـ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ص 3/122⁶⁵
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الأولوى (ت: 1227هـ) تحقيق: علي عبد البارى عطية، الطبعة الأولى، عام 1415هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 1/382⁶⁶
- في ظلال القرآن، سيد قطب، الطبعة الأولى، عام 2011م، دار الشروق، ص 4/2111⁶⁷
- روح المعاني، ص 1/382⁶⁸
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين الحسيني، الطبعة الأولى، عام 1990م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 1/465⁶⁹
- الشعراء: 26/205-206⁷⁰
- روح المعاني، ص 1/382⁷¹
- أيضاً: ص 13/234⁷²
- غير خاف أن الأمر إذا صدر من الأدنى إلى الأعلى كان دعاء⁷³
- في ظلال القرآن، ص 4/2109⁷⁴
- أيضاً: ص 4/2110⁷⁵
- نوح: 71/26⁷⁶
- بل وفي حياة الحيوان⁷⁷
- غرائب القرآن، ص 13/133⁷⁸
- أيضاً: ص 13/113⁷⁹